موجز في التعريف بسورة نوح

الولاية بيتُ الأنبياء

سليمان بيضون

*** السورة الحادية والسبعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «النحل».**

*** سُمّيت بـ «نوح» لابتدائها بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ..﴾ ولتضمّنها مواقف لهذا النبيّ العظيم مع قومه.**

*** آياتها ثمانٍ وعشرون، وهي مكّيّة، مَنْ قرأها كان من المؤمنين الذين تُدركهم دعوةُ نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا..﴾، كما في الحديث النبويّ الشريف.**

*** ما يلي موجز في تفسير السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين) للشيخ عبد علي الحويزي ﵀ و(الميزان) للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ﵀ و(الأمثل) للمرجع الدينيّ الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ.**

وردت الإشارة إلى قصّة نبيّ الله نوح عليه السلام في سوَر متعدّدة في القرآن المجيد، منها: الشعراء، والمؤمنون، والأعراف، والأنبياء، وبشكل أوسع في سورة هود، حيث تحدّثت خمس وعشرون آية فيها عن هذا النبيّ العظيم، الذي هو من أُولي العزم.

وما جاء في سورة نوح عن قصّته عليه السلام هو مقطع خاصّ من حياته، يرتبط بدعوته المستمرّة والمتابعة إلى التوحيد، مقابل قوم معاندين ومتكبّرين يأنفون الانقياد إلى الحقّ.

الدعوة إلى التوحيد بالبرهان والمودّة

تشير السورة إلى رسالة نوحٍ عليه السلام إلى قومه وإجمال دعوته وعدم استجابتهم له، ثمّ شكواه إلى ربّه منهم ودعائه عليهم، واستغفاره لنفسه ولوالديه ولمَن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات، ثمّ حلول العذاب بالمعاندين وإهلاكهم بالإغراق.

وبلحاظ أنّها نزلت في مكّة، وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمين القلائل في ذلك الزمان كانوا يعيشون ظروفاً مشابهة لظروف عصر نوح عليه السلام وأنصاره، فإنّها تعلّمهم أموراً كثيرة، وكانت هذه واحدة من أهداف إيراد هذه القصّة، ومنها:

١ – أنّها تذكّرهم كيف يبلّغون الرسالة للمشركين عن طريق الاستدلال المنطقي المقترن بالمحبّة والمودّة، واستخدام كلّ طريقة تكون مفيدة ومؤثّرة في الدعوة.

٢ – أنّها تعلّمهم الثبات والنشاط في طريق الدعوة إلى الله، عزّ وجلّ، وعدم التكاسل مهما طالت الأعوام، ومهما وضع الأعداء العوائق.

٣ – أنّها تعلّمهم كيف يرغّبونهم ويشجّعونهم تارة، وتكون لديهم عوامل الإنذار والتخويف تارة أخرى، والاستفادة من كِلا الطريقين في الدعوة إلى الله جلّ وعلا.

٤ – الآيات الأخيرة من هذه السورة هي تحذير للمشركين المعاندين بأنّ عاقبتهم وخيمة إذا لم يستسلموا للحقّ، وتخلّفوا عن أمر الله تعالى.

٥ – أنّ هذا السورة جاءت لتهدئة مشاعر المؤمنين الأوائل ومن يعيش مثل ظروفهم، ليصبروا على الصعوبات، ويطمئنّوا في مسيرهم بلطفٍ من الله عزّ وجلّ.

مَن قرأها في الصلاة أَسكنَه اللهُ مساكنَ الأبرار

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «**مَنْ قَرَأَ سورَةَ نوحٍ كانَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ الّذينَ تُدْرِكُهُمْ دَعْوَةُ نُوحٍ**».

* وعن الإمام جعفر الصادق ﵇: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَقْرَأُ كِتابَهُ فَلا يَدَعْ أَنْ يَقْرَأَ سورَةَ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا..﴾، فَأَيُّ عَبْدٍ قَرَأَها مُحْتَسِباً صابِراً في فَريضَةٍ أَوْ نافِلَةٍ، أَسْكَنَهُ اللهُ مَساكِنَ الأَبْرارِ، وَأَعْطاهُ ثَلاثَ جِنانٍ مِنْ جَنَّتِهِ كَرامَةً مِنَ اللهِ**».

في تفسير آياتٍ من السورة: مبادرةُ المَنِيّة بالاستغفار

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ..﴾ الآية:١.

الإمام الباقر عليه السلام: «**كانَ بَيْنَ آدَمَ ونوحٍ عَشَرَةُ آباءٍ كُلُّهُمْ أَنْبِياءُ**"..." **وَإِنَّ الأَنْبِياءَ بُعِثوا خاصَّةً وعامَّةً، فَأَمّا نوحٌ فَإِنَّهُ أُرْسِلَ إلى مَن في الأَرْضِ بِنُبُوَّةٍ عامَّةٍ وَرِسالَةٍ عامَّةٍ**».

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ الآيات:١٠-١٢.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «.. **وَقَدْ جَعَلَ اللهُ، سُبْحانَهُ، الاسْتِغْفارَ سَبَباً لِدُرورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الخَلْقِ** "..." **فَرَحِمَ اللهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقالَ خَطيئَتَهُ، وَبادَرَ مَنِيَّتَهُ**».

* سأل رجلٌ أبا عبد الله الصادق عليه السلام، فقال له: جُعلت فداك، إنّي كثير المال وليس يولَد لي ولد، فهل من حيلة؟

قال عليه السلام: «**نَعَمْ، اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ سَنَةً في آخِرِ اللَّيْلِ مِئَةَ مَرَّةٍ، فَإِنْ ضَيَّعْتَ ذَلِكَ بِاللَّيْلِ فَاقْضِهِ بِالنَّهارِ، فَإِنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿..ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ..﴾**».

عن النبيّ صلى الله عليه وآله

* الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهم السلام: «**قالَ رَسولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعالى، وَمَنِ اسْتَبْطَأَ الرِّزْقَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ، وَمَنْ حَزَنَهُ أمرٌ فَلْيَقُلْ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ**».

أنّ مَن واظب على

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ الآية:٢٣.

الإمام الصادق عليه السلام: «**كانوا** [أي أصحاب هذه الأسماء] **يَعْبُدونَ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، فَماتوا، فَضَجَّ قَوْمُهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَجاءَهُمْ إِبْليسُ، لَعَنَهُ اللهُ، فَقالَ لَهُمْ: أَتَّخِذُ لَكُمْ أَصْناماً عَلى صُوَرِهِمْ فَتَنْظُرونَ إِلَيْهِمْ وَتَأْنَسونَ بِهِمْ وَتَعْبُدونَ اللهَ، فَأَعَدَّ لَهُمْ أَصناماً عَلى مِثالِهِمْ؛ فَكانوا يَعْبُدونَ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْظُرونَ إِلى تِلْكَ الأَصْنامِ، فَلَمّا جاءَهُمُ الشِّتاءُ وَالأَمْطارُ أَدْخَلوا الأَصْنامَ البُيوتَ فَلَمْ يَزالوا يَعْبُدونَ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، حَتّى هَلَكَ ذَلِكَ القَرْنُ وَنَشَأَ أَوْلادُهُمْ، فَقالوا: إِنَّ آباءَنا كَانُوا يَعْبُدونَ هَؤلاءِ؛ فَعَبَدوهُمْ مِنْ دونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ..**».

شملته دعوة نوح عليه

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية:٢٦.

السلام بالمغفرة له

الإمام الباقر عليه السلام: «**لَمّا دَعا نوحٌ، عَلَيْهِ السَّلامُ، رَبَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلى قَوْمِهِ أَتاهُ إِبْليسُ فَقالَ لَهُ: يا نوحُ، إِنَّ لَكَ عِنْدي يَداً أُريدُ أَنْ أُكافيَكَ عَلَيْها.**

فَقالَ نُوحٌ: وَاللهِ، إِنّي لَيُبَغِّضُ إِلَيَّ أَنْ يَكونَ لي عِنْدَكَ يَدٌ، فَما هِيَ؟

قالَ: بَلى! دَعَوْتَ اللهَ عَلى قَوْمِكَ فَأَغْرَقَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ لي أَحَدٌ أَغْويهِ، فَأَنا مُسْتَريحٌ حَتّى يَنْشَأَ قَرْنٌ آخَرُ فَأَغْويهِمْ.

ولوالديه، وبالدخول

قالَ لَهُ [نوح]: فَما الَّذي تُريدُ أَنْ تُكافيَني بِهِ؟

قالَ لَهُ: اذْكُرْني في ثَلاثِ مَواطِنَ؛ فَإِنّي أَقْرَبُ ما أَكونُ مِنَ العَبْدِ إِذا كانَ في إِحْداهُنَّ: اذْكُرْني عِنْدَ غَضَبِكَ، وَاذْكُرْني إِذا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَاذْكُرْني إِذا كُنْتَ مَعَ امْرَأَةٍ جالِساً لَيْسَ مَعَكُما أَحَدٌ».

في سلك المؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ الآية:٢٧.

الإمام الباقر عليه السلام: «**..أَوْحى اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، إِلَيْهِ: ﴿..أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾** هود:٣٦، **فَلِذَلِكَ قالَ نوحٌ: ﴿..وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، فَأَوْحَى اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، إِلَيْهِ ﴿..أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ..﴾** المؤمنون:٢٧».

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا..﴾ الآية:٢٨.

الإمام الصادق عليه السلام: «**يَعْني الوِلايَةَ، مَنْ دَخَلَ في الوِلايَةِ دَخَلَ في بَيْتِ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ**».

الاجتماعُ الإسلاميّ

صيانتُه بمكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف، والتدبُّر في المعارف

العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله

للعلّامة الطباطبائي في الجزء الرابع من (تفسير الميزان) بحثٌ مطوّل عن الاجتماع الإسلامي، يبدأه بالاستدلال على أنّ الإنسان اجتماعيٌّ بالطبع، وأنّ هذه الخاصّية قابلة فيه للنموّ والتطوّر، مبيّناً أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسّس بنيانه على الاجتماع من خلال إحاطة أحكامه بكل الشؤون الإنسانية، مقلّباً لها في قالب الاجتماع لغايةٍ هي توحيد الله، عزَّ وجلَّ.

ويعرض العلامة الطباطبائي في فصولٍ من بحثه معنى الحرية في الإسلام، ويفنّد مقولة أن شريعة الإسلام لا تكفي لإسعاد الحياة الحاضرة.

في ما يلي قسمٌ من هذا البحث القيّم الذي جاء بعنوان: «الإسلام اجتماعيٌّ في جميع شؤونه».

صفة الاجتماع مرعيّة مأخوذة في الإسلام في جميع ما يمكن أن يؤدّى بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام، بحسب ما يليق بكلٍّ منها من نوع الاجتماع، وبحسب ما يمكن فيه من الأمر والحثّ الموصِل إلى الغرض، فينبغي للباحث أن يعتبر الجهتين معاً في بحثه.

فالجهة الأولى: ما نرى أنّ الشارع شرّع الاجتماع مستقيماً [بشكل مباشر] في الجهاد، إلى حدٍّ يكفي لنجاح الدفاع، فهذا نوعٌ. وشرّع وجوب الصوم والحجّ، مثلاً، للمستطيع غير المعذور، ولازمُه اجتماع الناس للصيام والحجّ، وتمّم ذلك بالعيدَين: الفِطر والأضحى والصلاة المشروعة فيهما.

وشرّع وجوب الصلوات اليومية عينياً لكلّ مكلّف من غير أن يوجب فيها جماعة، وتدارك ذلك بوجوب الجماعة في صلاة الجمعة في كلّ أسبوع مرّة؛ صلاة جماعة واحدة في كلّ أربعة فراسخ، وهذا نوع آخر.

والجهة الثانية: ما نرى أنّ الشارع شرّع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطة كما عرفت، وألزم على الاجتماع في أمور أخرى غير واجبة، لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً، كصلاة الفريضة مع الجماعة، فإنّها مسنونة مستحبّة، غير أنّ السنّة جرت على أدائها جماعة، وعلى الناس أن يُقيموا السنّة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قومٍ من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة: «**لَيُوشِكُ قَوْمٌ يَدَعُونَ الصَّلاةَ فِي الْمَسْجِدِ أَنْ نَأْمُرَ بِحَطَبٍ فَيُوضَعَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ، فَتُوقَدَ عَلَيْهِمْ نارٌ فَتُحْرِقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ**». وهذا هو السبيل في جميع ما سنّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيجب حفظ سنّته على المسلمين بأيّ وسيلة أمكنت لهم، وبأيّ قيمة حصلت.

وهذه أمورٌ سبيل البحث فيها هو الاستنباطُ الفقهيّ من الكتاب والسنّة، والمتصدّي لبيانها هو الفقه الإسلاميّ.

الإسلام اجتماعيٌّ في معارفه

وأهمّ ما يجب ههنا هو عطف عنان البحث إلى جهة أخرى، وهي اجتماعية الإسلام في معارفه الأساسية، بعد الوقوف على أنّه يراعي الاجتماع في جميع ما يدعو الناس إليه من قوانين الأعمال العبادية والمعاملية والسياسية، ومن الأخلاق الكريمة، ومن المعارف الأصلية.

نرى الإسلام يدعو الناس إلى دين الفطرة بدعوى أنّه الحقّ الصريح الذي لا مرية فيه، والآيات القرآنية الناطقة بذلك كثيرة مستغنية عن الإيراد، وهذا أول التألّف والتأنّس مع مختلف الأفهام، فإنّ الأفهام على اختلافها وتعلّقها بقيود الأخلاق والغرائز لا تختلف في أنّ الحقّ يجب اتّباعه.

ثمّ نراه يعذر مَن لم تقم عليه البيّنة ولم تتّضح له المحجّة، وإن قرعت سمْعَه الحجّة، قال تعالى: ﴿..لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ..﴾ الأنفال:٤٢.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ النساء: ٩٨-٩٩.

انظر إلى إطلاق الآية ومكان قوله: ﴿..لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾، وهذا يُعطي الحريّة التامّة لكلّ متفكّر يرى نفسه صالحة للتفكّر، مستعدّة للبحث والتنقير [التفتيش]، أن يتفكّر في ما يتعلّق بمعارف الدين، ويتعمّق في تفهّمها والنظر فيها، على أنّ الآيات القرآنية مشحونة بالحثّ والترغيب في التفكّر والتعقّل والتذكّر.

ومن المعلوم أنّ اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثّرة في اختلاف الأفهام من حيث تصوّرها وتصديقها ونيلها وقضائها، وهذا يؤدّي إلى الاختلاف في الأصول التي بُني على أساسها المجتمع الإسلامي.

إلّا أنّ الاختلاف بين إنسانَين في الفهم على ما يقضي به فنّ معرفة النفس، وفنّ الأخلاق، وفنّ الاجتماع، يرجع إلى أحد أمور:

١- إمّا إلى اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنة من الملَكات الفاضلة والرديّة، فإنّ لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الإنسانية من حيث الاستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن، فما إدراك الانسان المنصف وقضاؤه الذهني كإدراك الشَّموس المُتعسّف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف كَنَيْلِ العجول والمتعصّب وصاحب الهوى والهمجيّ الذي يتبع كلّ ناعق، والغويّ الذي لا يدري أين يريد ولا أنّى يراد به.

والتربية الدينية تكفي مؤونة هذا الاختلاف، فإنها موضوعة على نحوٍ يلائم الأصول الدينية من المعارف والعلوم، وتستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول وهي مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿..كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الأحقاف:٣٠. وقال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة:١٦.

٢- وإمّا أن يرجع اختلافُ الأفهام إلى اختلاف الأفعال، فإنّ الفعل المخالف للحقّ؛ كالمعاصي وأقسام التهوّسات الإنسانية [التهوّسات هي الأفكار والخواطر التي تُودي بالإنسان إلى الإنحراف] - ومن هذا القبيل أقسام الإغواء والوساوس - يلقّن الإنسانَ، وخاصة العاميّ الساذج، الأفكارَ الفاسدة، ويُعدّ ذهنه لدبيب الشبُهات وتسرّب الآراء الباطلة فيه، وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلّف عن اتّباع الحقّ، وقد كفى مؤونةَ هذا أيضاً الإسلامُ، حيث أمر المجتمع بإقامة الدعوة الدينية دائماً أوّلًا، وكلّف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، وأمر بهجرة أرباب الزَّيغ والشبهات ثالثاً، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ..﴾ آل عمران:١٠٤.

فالدعوة إلى الخير تُثبّتُ الاعتقادَ الحقّ وتقرّهُ في القلوب بالتلقين والتذكير، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقّة في النفوس.

٣- وإمّا أن يكون الاختلاف في الفهم من جهة العوامل الخارجية، كبُعد الدار، وعدم بلوغ المعارف الدينية إلّا يسيرة أو محرّفة، أو قصور فهم الإنسان عن تعقّل الحقائق الدينية تعقّلاً صحيحاً، (كالحماقة) والبلادة المستندتَين إلى خصوصية المزاج. وعلاجُه، تعميم التبليغ، والإرفاق في الدعوة والتربية، وهذان من خصائص السلوك التبليغيّ في الإسلام، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي..﴾ يوسف:١٠٨، ومن المعلوم أنّ البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه في

التدبُّر والتفكُّر في معارف الدين واجبٌ اجتماعيّ يحول دون تسلّل الشبهات إلى الجماعة المسلمة

القلوب، وأنحاءَ تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقّين والمستمعين، فلا يبذل لإحدٍ إلا مقدارَ ما يعيه منه، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله، على ما رواه الفريقان: «**إنّا مَعاشِرَ الأَنْبياءِ نُكَلِّمُ النّاسَ عَلى قَدْرِ عُقولِهِمْ**» .

صورةُ التفكّر الاجتماعيّ

وقد قرّر الإسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك، يقيه من دبيب الاختلاف المؤدّي إلى الفساد والانحلال، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام:١٥٣.

فبيّن أنّ اجتماعهم على اتّباع الصراط المستقيم، وحَذَرَهم عن اتّباع سائر السبل، يحفظهم عن التفرّق ويحفظ لهم الاتحاد والاتفاق. ثمّ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..﴾ آل عمران: ١٠٢-١٠٣، وقد مرّ أنّ المراد بحبل الله هو القرآن المبيّن لحقائق معارف الدين، أو هو والرسول صلّى الله عليه وآله، على ما يظهر من قوله تعالى قبله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران:١٠٠-١٠١.

تدلّ الآيات على لزوم أن يجتمع المؤمنون على معارف الدين، ويربطوا أفكارهم بعضها ببعض، ويمتزجوا في التعليم والتعلّم، فيستريحوا في كلّ حادث فكريّ أو شُبهة ملقاة إلى الآيات المتلوّة عليهم، والتدبّر فيها لحسم مادّة الاختلاف، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء:٨٢.

وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت:٤٣.

وقال: ﴿..فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل:٤٣، فأفاد أنّ التدبّر في القرآن أو الرجوعَ إلى من يتدبّر فيه يرفع الاختلاف من البَين.

وتدلّ الآيات المتقدّمة على أنّ الإرجاع إلى الرسول - وهو الحامل لثقل الدِّين - يرفع من بينهم الاختلاف، ويبيّن لهم الحقّ الذي يجب عليهم أن يتّبعوه، قال تعالى: ﴿..وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل:٤٤.

وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿..وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..﴾ النساء:٨٣.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء:٥٩، فهذه صورة التفكّر الاجتماعي في الإسلام.

الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر يُفضيان إلى رسوخ الاعتقادات الحقّة في المجتمع

معيار الفطرة هو العقد الاجتماعيّ الذي يُذيب اختلاف الأفهام وتأثُّر أصحابها بالطبائع والغرائز